

التَّقْوِيمُ الْإِسْلَامِيُّ

تَارِيخُهُ، خُصُوصِيَّتُهُ وَمَعَانِيهِ



د. عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفَ الْجَدِيعِ | رئيس المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث

ما هُوَ التَّقْوِيمُ الْإِسْلَامِيُّ؟
لا يُوجَدُ ما يُسَمَّى قَدِيمًا (التَّقْوِيمُ الْإِسْلَامِيُّ)،
وإنَّما هُوَ (التَّقْوِيمُ الْقَمَرِيُّ) لِكُونِهِ يَرْتَبِطُ
بِالْقَمَرِ، وَهُوَ ارْتِبَاطٌ بِظَاهِرَةِ كَوْنِيَّةٍ، لَا
اخْتِصَاصَ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ بِالْإِسْلَامِ، وَلِذَلِكَ
وُجِدَتْ وَلَا تَزَالُ أُمَمٌ تَعْرِفُ شُهُورَ الْعَامِ بِنَفْسِ
الطَّرِيقِ.
أَوْ هُوَ (التَّقْوِيمُ الْهَجْرِيُّ)، وَهَذَا يُعْطِيهِ وَصْفًا
أَدَقُّ، إِذْ يَرْتَبِطُ بِتَارِيخِ الْأُمَّةِ مِنْ جِهَةٍ، كَمَا أَنَّهُ
يُعْطِيهِ مِيزَةً التَّقْوِيمِ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَى الْقَوَانِينِ
الَّتِي اعْتَبِرَتْ لِلتَّارِيخِ الْهَجْرِيِّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.
وَهُوَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ (تَّقْوِيمٌ إِسْلَامِيٌّ)، فَمَنْشُؤُهُ
إِسْلَامِيٌّ، وَقَانُونُهُ إِسْلَامِيٌّ.

لَكِنْ يُلَاحَظُ أَنَّ مُفْرَدَةَ (التَّقْوِيمُ الْإِسْلَامِيُّ)
صَالِحَةٌ لِإِطْلَاقِهَا عَلَى (التَّقْوِيمِ الْقَمَرِيِّ
الْهَجْرِيِّ) وَالَّذِي هُوَ لِحِسَابِ الشُّهُورِ وَالسِّنِّينِ،
وَصَالِحَةٌ لِتَقْوِيمِ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ الشَّمْسِيَّةِ،
وَالَّتِي هِيَ لِلْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. وَذَلِكَ مَا يَرَاغَى عَادَةً
فِي حِسَابِ (النَّتِيجَةِ) أَوْ (الرُّزْنَامَةِ).

(رُزْنَامَهُ)، وَهِيَ مُفْرَدَةٌ فَارِسِيَّةٌ الْأَصْلُ تَعْنِي
كُتَيْبَ التَّقْوِيمِ.
كَمَا أَنِّي أَحْتَمِلُ أَنَّ أَصْلَ الْمَفْرَدَةِ إِذَا كَانَ
إِسْلَامِيًّا فَرُبَّمَا عَادَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ
الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ
اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ
حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [النُّبُوة: 36]، فَقَدْ
قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: "ذَلِكَ الْحِسَابُ الْبَيِّنُ"،
و"الْمُسْتَقِيمُ".

وإن كَانَ أَصْلُهَا غَيْرَ إِسْلَامِيٍّ، فَيَكُونُ جَاءَنَا
مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي كَانَتْ تَقُومُ مَا تَعْتَقِدُهُ مِنْ خَلَلِ
حِسَابَاتِهَا لِلشُّهُورِ فَكَانَتْ تُضَيِّفُ إِلَيْهَا الشُّهُرَ
وَالشُّهُرَيْنِ وَالْأَيَّامَ لِتَضْبِطَها حَسَبَ الْمَوَاسِمِ،
وَذَلِكَ عُرِفَ فِي الْأُمَمِ الَّتِي أَرَحَتْ بِالتَّقْوِيمِ
الشَّمْسِيِّ.

أَمَّا الْعَرَبُ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ السَّنَةَ بِأَنْهَا
اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يُؤَخَّرُونَ الشُّهُرَ
الْحَرَامَ اسْتِباحَةً لِلْقِتَالِ فِيهِ، لَا أَنَّهُمْ كَانُوا
يَزِيدُونَ مِنْ أَجْلِ التَّقْوِيمِ، فَذَلِكَ مَا لَا يَعْرِفُ
عَنْهُمْ فِي أَثَرٍ.

"التَّقْوِيمُ" مُفْرَدَةٌ تَعُودُ إِلَى أَصْلِ (قَوْم)، وَهُوَ
يَدُلُّ فِي الْأَصْلِ عَلَى الْإِنْتِصَابِ، **يُقَالُ: "أَقَمْتُهُ
فَقَامًا" أَي: ائْتَصَبْتُ مُسْتَوِيًّا؛** وَلِذَا اسْتُعْمِلَ
لِمَعْنَى يُقَابِلُ الْعَوَجَ، فَالشَّيْءُ يَكُونُ أَعْوَجَ،
فَتَذْهَبُ تَقْيِمُهُ، أَي تَضْبِطُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ.
وَشَاعَ اسْتِعْمَالُ الْفُقَهَاءِ لِهَذِهِ الْمَفْرَدَةِ فِي
أَبْوَابِ التَّعْوِضَاتِ وَالْمَعَاوَضَاتِ، وَهِيَ فِي
سِيَاقٍ مَا يَعُودُ إِلَى رِعَايَةِ الْقِيَمَةِ، وَهُوَ مَعْنَى
أَصْلُهُ مِنْ نَفْسِ هَذَا الْمَعْنَى اللَّغَوِيِّ الْمَتَقَدِّمِ،
قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: "أَصْلُ الْقِيَمَةِ الْوَاوُ، وَأَصْلُهُ
أَنَّكَ تَقِيمُ هَذَا مَكَانَ ذَلِكَ. وَبَلَّغْنَا أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ
يَقُولُونَ: اسْتَقَمْتُ الْمَتَاعَ، أَي قَوْمْتُهُ" (1).

وَمِنْ هَذَا تَأْتِي مُفْرَدَةُ (تَقْوِيم) فِي اسْتِعْمَالِهَا
الْفَلَائِي، فَكَانَتْ مِنْ إِقَامَةِ الشَّيْءِ عَلَى الْجَادَّةِ،
بِإِزَالَةِ عَوَجِهِ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ ضَبْطِهِ
بِالْحِسَابِ الدَّقِيقِ.

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: "يُسَمُّونَهُ عِلْمَ التَّقْوِيمِ
وَالْتَّعْدِيلِ؛ لِأَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَعْلَى مَسِيرِ الْكَوَاكِبِ
وَأَدْنَاهَا، فَيَأْخُذُونَ مُعَدَّلَهُ فَيَحْسُبُونَهُ" (2).

وَشَاعَتْ هَذِهِ الْمَفْرَدَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْفَلَكَ، وَآلَفَتْ
فِيهَا الْمَصْنُفَاتُ، وَعَرَفَ النَّاسُ (التَّقْوِيم) فِي
الْعَصْرِ الْحَاضِرِ بِاسْمِ (النَّتِيجَةِ)، وَذَلِكَ لِكُونِهِ
حَاصِلَ عَمَلِيَّةٍ حِسَابِيَّةٍ، كَمَا عَرَفُوهُ بِاسْمِ

(1) مُعْجَمُ مَقَايِيسِ اللُّغَةِ، لِابْنِ فَارِسٍ (5/43).

(2) مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى (9/216).

مَكَانَةُ التَّقْوِيمِ الْهَجْرِيِّ:

عَرَفَتِ الْأُمَمُ مَعَالِمَ تَعَبُّرٍ عَنْ خُصُوصِيَّاتِهَا وَتَمَيُّزِهَا، عَنْ جَمِيعِ أَمَمِ الدُّنْيَا، وَالتَّارِيخُ أَوْ التَّقْوِيمُ مِنْ أُبْرَزِ الْمَعَالِمِ لِأَيِّ حَضَارَةٍ، وَلِذَا عَرَفَ التَّارِيخُ الْبَشَرِيُّ لَجَمِيعِ تِلْكَ الْأُمَمِ أَنَّهُمْ أَرْجَحُوا بِتَوَارِيخٍ تَخْصُهُمْ، كَالرُّومِ وَالْقِبْطِ وَالْفُرْسِ وَالصِّبْنِيِّينَ، وَغَيْرِهِمْ.

وَهَكَذَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ مُنْطَلَقِ الْخُصُوصِيَّةِ الْحَضَارِيَّةِ أَرْجَحُوا، وَقِصَّةُ بَدْءِ التَّارِيخِ كَانَتْ بِأُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فِي قِصَّةِ مَشْهُورَةٍ، تَمَّ فِيهَا اخْتِيَارُ يَوْمِ الْهَجْرَةِ كَأَوَّلِ يَوْمٍ لِلتَّارِيخِ الْهَجْرِيِّ، وَبَدَأُوا السَّنَةَ بِالْمَحْرَمِ؛ لِأَنَّهُ مُنْصَرَفُ النَّاسِ مِنْ حَجَّهِمْ.

وَلَمْ يَعْرِفِ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَهُ التَّارِيخَ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُؤَرِّخُونَ بِالْوَقَائِعِ، فَيَقُولُونَ: (عَامُ الْفِيلِ، وَيَوْمُ بَذْرِ، وَيَوْمُ الْحُدَيْبِيَّةِ)، وَهَكَذَا، فَلَمَّا بَدَأَ الْمُسْلِمُونَ التَّارِيخَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ، وَجَعَلُوا الْهَجْرَةَ النَّبَوِيَّةَ مُبْتَدَأَ بَنَاءِ ذَلِكَ عَلَى اعْتِبَارِ دِينِي، فَالْهَجْرَةُ كَانَتْ فَرْقًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ، كَمَا أَنَّهَا كَانَتْ اللَّيْنَةَ الْأُولَى فِي صَرْحِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَدَوْلَةِ الْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا فِي التَّارِيخِ الْإِنْسَانِي نَظِيرٌ.

كَانَتْ تَوَارِيخُ الْأُمَمِ الْمَجَاوِرَةِ لِلْمُسْلِمِينَ كَالرُّومِ وَالْفُرْسِ مَوْجُودَةً سَارِيَةً جِئْنَ عَزَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى التَّارِيخِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي أَثَرِ النَّبَةِ أَنَّهُمْ اعْتَبَرُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، بَلْ جِئْنَ أَرَادُوا التَّارِيخَ كَانَتْ جَمِيعَ الْمُقْتَرَحَاتِ الَّتِي قَدَّمَتْ مَوْصُولَةً بِالنَّبِيِّ ﷺ: مَوْلَدُهُ، أَوْ بَعْثُهُ، أَوْ هَجْرَتُهُ، أَوْ وَفَاتِهِ. وَلَمْ يُقْتَرَحْ أَحَدٌ اتِّبَاعَ تَارِيخِ أُمَّةٍ أُخْرَى مِنَ الْأُمَمِ، وَهَذَا مِنْ أَدَلِّ مَا يَكُونُ عَلَى اعْتِبَارِ مَعْنَى الْخُصُوصِيَّةِ، لَيْسَتْ الْحَضَارِيَّةُ هُنَا فَقَطْ، وَإِنَّمَا الْعَقْدِيَّةُ الدِّينِيَّةُ، وَلَمْ يَكُنْ بِحَالٍ أَنْ تَتَّبَعَ خَيْرُ أُمَّةٍ مِنْ دُونِهَا فِي عُنوانٍ هُوَ مِنْ أُبْرَزِ عَنَاوِينِ الْمَاهِيَّةِ.

وَهَذَا مَا يَتَأَكَّدُ فِيهِمَا بَلِي فِي رِعَايَةِ مَرَجِعِيَّةِ التَّارِيخِ الْهَجْرِيِّ وَقَاعِدَتِهِ.

قَاعِدَةُ التَّارِيخِ الْهَجْرِيِّ:

يَعْرِفُ النَّاسُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْإِسْلَامُ أَنَّ السَّنَةَ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، وَهَكَذَا عَرَفَتْهُ أُمَّةٌ غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَعْرِفُ الشُّهُورَ الْقَمَرِيَّةَ، وَأَسْمَاؤُهَا الَّتِي نَعْرِفُهَا حَتَّى الْيَوْمِ هِيَ ذَاتُهَا أَسْمَاؤُهَا مِنْذُ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْرِفْ لَهُمْ أَعْوَامٌ مَحْسُوبَةٌ، وَكَانُوا يَتَلَاعَبُونَ بِحِسَابِ الشُّهُورِ، بِالنِّسْبَةِ، وَهُوَ إِزْجَاءُ الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَيُؤَخَّرُونَ مَثَلًا شَهْرَ الْمَحْرَمِ وَيُقَدِّمُونَ عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ، مِنْ بَابِ الْجِيلَةِ عَلَى التَّحْرِيمِ لِلشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَفِي هَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ

الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِنَّ أَنْفُسُكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ. إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿[التوبة: 36-37].

وَفِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ جِئْنَ خَطَبَ النَّبِيِّ ﷺ النَّاسَ كَانِ مِمَّا وَدَّعَ بِهِ أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثُ مُتَوَالِيَاتٍ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمَحْرَمِ، وَرَجَبُ مُصَرَّرٍ الَّذِي بَيْنَ جَمَادَى وَشَعْبَانَ﴾ (3).

وَلَعَلَّ مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِ اسْتِدَارَةِ الزَّمَانِ، قَوْلُ ابْنِ الْأَثِيرِ الْجَزَرِيِّ: "مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يُؤَخَّرُونَ الْمَحْرَمَ إِلَى صَفَرٍ، وَهُوَ النَّسِيءُ؛ لِيُقَاتِلُوا فِيهِ وَيَفْعَلُونَ ذَلِكَ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ، فَيَنْتَقِلُ الْمَحْرَمُ مِنْ شَهْرِ إِلَى شَهْرٍ حَتَّى يَجْعَلُوهُ فِي جَمِيعِ شُهُورِ السَّنَةِ، فَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ السَّنَةُ كَانَتْ قَدْ عَادَ إِلَى زَمَنِهِ الْمَخْصُوصِ بِهِ قَبْلَ النُّقْلِ، وَدَارَتْ السَّنَةُ كَهَيْئَتِهَا الْأُولَى" (4).

وَقَدْ نَصَبَتِ الشَّرِيعَةُ لِمَعْرِفَةِ الشُّهُورِ طَرِيقًا لَا يَضِلُّ النَّاسُ مَعَهُ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الْقَوِيمُ الَّذِي رَبَطَ لَهُمْ بِهِ الْإِسْلَامُ شَرَائِعَ دِينِهِمْ، وَانْتَهَوَا إِلَيْهِ فِي مَوَاقِفَتِهِمْ لِتَدْبِيرِ مَصَالِحِهِمْ، وَهُوَ مَا اسْتَصْحَبَهُ الصَّحَابَةُ جِئْنَ بَدَأُوا التَّارِيخَ فِي خِلَافَةِ الْفَارُوقِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

طَرِيقُ مَعْرِفَةِ الشُّهُورِ:

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةَ الصَّيَامِ، حَدَدَ لَهُ زَمَانَيْنِ فَرَضَ اعْتِبَارَهُمَا:

الزَّمَانُ الْأَوَّلُ: قَمَرِيٌّ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185].

وَالزَّمَانُ الثَّانِي: شَمْسِيٌّ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثِ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ

تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَتْبِعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: 187].

ثُمَّ اتَّبَعَ ذَلِكَ بَعْدَهُ بِبَيْسِرٍ بِقَوْلِهِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189].

وَالْأَهْلُ لِلْقَمَرِ لَا لِلشَّمْسِ، فَهَذِهِ الْآيَةُ إِذَنْ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْقَمَرِ، وَتَحْدِيدُ الْقُرْآنِ لَوْظِيْفَةِ الْأَهْلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، يُفَسِّرُ أَنَّهَا الشُّهُورُ الَّتِي تَضِبُّ لِلنَّاسِ أَوْقَاتَهُمُ الدِّينِيَّةَ وَالدُّنْيَوِيَّةَ، وَلَيْسَتْ الْمَوَاقِيتُ الشَّمْسِيَّةُ، فَتِلْكَ لِيَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، وَالْهَلَالُ هُوَ الْعَلَامَةُ عَلَى الشَّهْرِ، بَلْ إِنَّ أَهْلَ اللِّسَانِ يَذْكُرُونَ بَيْنَهُمَا تَرَادُفًا، وَهُوَ فِي الْوَاقِعِ مِنْ بَابِ الْمَجَازِ، فَيَقُولُونَ: (الشَّهْرُ هُوَ الْهَلَالُ) (5)، لِأَنَّهُ يُشْهَرُ بِالْهَلَالِ بِهِ، وَهُوَ أَنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَتْهُ أَعْلَنَتْ بِهِ وَرَفَعَتْ الْأَصْوَاتَ بِذِكْرِهِ.

فَهَذِهِ الْآيَةُ إِذَنْ تُبَيِّنُ أَنَّ الشُّهُورَ تُعْرَفُ بِالْهَلَالِ، فَالْهَلَالُ نِهَائِيَّةُ شَهْرٍ وَبِدَائِيَّةُ شَهْرٍ آخَرَ. وَلِذَا جِئْنَ جَاءَتِ السَّنَةُ عَلَى تَفْسِيرِ ذَلِكَ قَرَّرَتْ أَنَّ الشَّهْرَ يَنْبَغُ بِرُؤْيَا الْهَلَالِ، وَهُوَ شَهْرُهُ، وَبِهِ يَتِمُّ امْتِنَالُ الْمَأْمُورِ فِي الصَّوْمِ مَثَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185].

ثُمَّ يَسْتَمِرُّ التَّلَبُّسُ بِالْوَاجِبِ لَغَيْرِ صَاحِبِ عُدَرٍ حَتَّى يُكْمَلَ الْعِدَّةُ، أَيْ يَتِمَّ الشَّهْرُ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِتَكْمَلُوا الْعِدَّةَ﴾ [البقرة: 185].

وَبَيَانُ السَّنَةِ جَاءَ مُتَوَاتِرًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا رَأَيْتُمُ الْهَلَالَ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطَرُوا، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَصُومُوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا﴾ (6). وَفِي هَذَا بَيَانٌ عِدَّةُ أَيَّامِ الشَّهْرِ فِي الْإِسْلَامِ، فَهُوَ ثَلَاثُونَ يَوْمًا فِي حِسَابِ الْأَيَّامِ، إِلَّا أَنْ يَرَى الْهَلَالَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَا يَرَى لِأَقَلِّ مِنْ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَهُوَ قَوْلُهُ ﷺ: {الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً، فَلَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمَلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ} (7).

وَقَالَ ﷺ: {إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ الشَّهْرَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا - وَعَقْدُ الْإِبْهَامِ فِي الثَّالِثَةِ - وَالشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا} يَعْنِي تَمَامَ ثَلَاثِينَ (8).

(3) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (رقم: 4406، 5550)؛ وَمُسْلِمٌ (رقم: 1679)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ الثَّقَفِيِّ.

(4) النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ، لِابْنِ الْأَثِيرِ (2/139).

(5) النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ، لِابْنِ الْأَثِيرِ (2/515).

(6) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (رقم: 1081)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(7) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (رقم: 1907)؛ وَمُسْلِمٌ (2/759)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ.

(8) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (رقم: 1913)؛ وَمُسْلِمٌ (2/761)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ.

فهذه المعالم هي ضابط حساب الشهور، وهي قمرية لا ترتبط بالأملة، وتقدم أن الله جعل شهور السنة اثني عشر شهرا خلقا وتقديرا، وهو التقويم الذي أراد لعباده، وبه ربط لهم ما شاء من التكليف.

4. كذلك جعل حساب سنينهم بالقمر، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِيَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5].

فجعل الغاية للمكلفين من تقدير القمر منازل أن يضبطوا بذلك تاريخهم. وهذه الآية من أدل ما يكون حجة على وجوب المحافظة على التاريخ القمري، وذلك مستلزم لما تقدم من حساب الشهور بالأملة.

ضرورة معرفة التقويم القمري:

لنست هذه المقالة الموجزة مناسبة لإجراء مقارنة للتقويم القمري مع التقويم الشمسي للشهور، والذي يقوم على رعاية الفصول الأربعة، وعليه يجري التاريخ الميلادي وغيره، فهذا له محل آخر، لكن ما تقدم بيّن أن التقويم القمري هو التقويم الذي قدره الله لعباده، ولذا ربط به الأحكام.

نعم، جرت مصالح الناس على اعتبار الفصول الأربعة في كثير من شؤونهم، كمعرفة الفلاح لمواسم الزراعة والحصاد مثلا، وهذه ينظمها لهم التقويم الشمسي، ولا يوجد ما يمنع من ذلك لهذا الاعتبار، فقد قال النبي ﷺ: ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ﴾⁽⁹⁾، ولكن لا يجيز ذلك إلغاء الأصل الذي اختاره الله لعباده لضبط مواعيدهم، وبخاصة التعديدية، وهو التقويم القمري.

والمسلمون لو استغنوا عنه في يومياتهم، وضبطوا مصالح دنياهم بالتاريخ الميلادي المضبوط بالتقويم الشمسي، فهم مضطرون إلى رعاية التقويم السنوي الرباني في ثلاثة من أركان دينهم، وفي غيرها من تكاليفه، فمن أمثلته:

1. الزكاة الواجبة بحول الحول، فالحول انقضاء سنة قمرية.

2. صوم رمضان، والفطر منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

3. الحج، بصريح آية الأهلة، وبقوله تعالى: ﴿الْحَجَّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْتٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: 197].

4. الكفارات الموقوتة بالأشهر، ككفارة الظهار، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [المجادلة: 4]، ومثلها في كفارة القتل الخطأ، [النساء: 92]، والوقاع في نهار رمضان.

5. العدد، كعدة المتوفى عنها زوجها: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 234].

6. وكعدة المطلقة التي لا تحيض، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَنْسَنَ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: 4].

7. حساب مدة الإيلاء، كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 226].

8. حساب مدة الرضاغة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِثَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: 233].

هذه إشارات موجزة على سبيل التذكير، أوصي في ختامها بتوصيتين:

الأولى: إلى عموم المسلمين.

وذلك بأن عليهم أن ينتبهوا إلى ضرورة حفظهم لتقويمهم القمري، وتاريخهم الهجري، أهيّب بهم أن يجعلوه حاضرا في حياتهم، بل سابقا في تعاملاتهم لتاريخهم المعتاد ما أمكن، فهو أحد أبرز عناوين الهوية والخصوصية والانتماء، وقد فقدته الأمة منذ أن جاءت فكرته لدى السلطان عبد الحميد الثاني⁽²⁾، فصدّقها المنقلب عليه مصطفى كمال، فتم التنازل عن هذا العنوان، وما لحقه من تركة استعمار ثقيلة مكلفة أتت على نضرة هذا التقويم العظيم فذهبت بها، فأصبح المسلمون لا يستحضرون تاريخهم إلا قليلا، ولا يدرون تقويمهم إلا عندما يظلمهم رمضان أو يأتي الحج.

والثانية: إلى العاديين الحاسبيين، إخواننا الفلكيين، كما هي إلى علماء الفقه والشريعة.

عليكم أن تظهروا للأمة كلها - لا للمسلمين فقط - أن التقويم القمري هو الجاري مع القانون الرباني، وما اختاره الله لحساب السنين عينا، جلت حكمته. وليأخذوا مجتمعين على أيدي المسلمين لجمع كلمتهم، وتوجيههم في عباداتهم؛ لئلا يتخذهم أعداء دينهم هزوا، بسبب ما يقعون فيه من اضطراب عظيم في أحص مظاهر دينهم التي يمتازون بها، كالصوم والفطر.

فلقد قال مؤرخ الآثار الأمريكي جيمس هنري برستد، وهو يتحدث عام 1935م، فيما نقله عنه وحيد الدين خان، كلمة تنبئ عن قبح تصور هؤلاء عنا؛ لجهلهم، أو لعداوتهم، أو لكليهما، قال: "لقد راج التقويم القمري في الدنيا لكثرة تداوله في غرب آسيا، ولغلبة الإسلام سياسيا بوجه خاص، ولقد مضى محمد بالاختلاف بين التقويم القمري والشمسي إلى أقصى حد من العبث يمكن تصوره، حتى أنه أبطل إضافة الشهور الكيسية (Intercalary months). إن السنة القمرية المزعومة تشتمل على 354 يوما، وتقل أحد عشر يوما عن السنة الشمسية. وهكذا تزيد السنة القمرية سنة واحدة كل 33 سنة، وثلاث سنين في كل قرن. فلو حل رمضان في يونيو في هذه السنة فسوف يحل بعد ست سنين في أبريل... لقد مضى 1313 عاما منذ الهجرة، حيث إن قرننا هو بمثابة مئة سنة وثلاث سنين في تقويم المسلمين، وقد سجل تقويمهم واجدا وأربعين عاما زائدا في هذه المدة من قرننا. وقد ألغت كنيسة اليهود الشرقية هذه السخافة واختارت طريقة إضافة الشهور (Intercalation) لتجعل تقويمها مثل التقويم الشمسي، وهذا هو السبب في أن غرب آسيا يعاني حتى الآن لعنة هذه الطريقة القديمة التقويم القمري"⁽¹¹⁾.

هذه مقالة حاقِد أو جاهل، وكَم مثل هذا في عالم اليوم وأسوأ!! فلا نسلط سفهاء الأحلام علينا بجهل أو تفريط، فلسنا بأشخاصنا من نصاب بهم حقيقة، وإنما نصاب بهم دعوة الإسلام.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. والحمد لله رب العالمين.

(9) أخرجه مسلم (رقم: 2363)، من حديث عائشة وأنس.

(10) مذكراتي السياسية، للسلطان عبد الحميد الثاني (ص: 192).

(11) الإسلام يتحدث، لوحيد الدين خان (ص: 26).

فِي وداع شهر رمضان المكرّم

لهفي عَلَى شهر الصيام الفاضل	*	ولى وَأصبح كالخيال الحائل
ولى سريعا وانقضى فكأنه	*	أحلام نوم أَوْ كظل زائل
فانظر إِلَى أيامه كَيْفَ انقضت	*	في الحين كالبرق السريع العاجل
شهر به الرحمن فضلنا وكم	*	فِيهِ لنا من كُلّ خير شامل
فلفقيه ذابت قلوبُ اولوالنهي	*	وغدت تودعه بدمع هامل
يَا غافلا مثلي أفق من غفلة	*	وَدَعَ التواني لَا تكن متكاسل
مَا هذه الدنيا بدار إقامة	*	بل دار زور للأنام وباطل
فدع الركون لَهَا وحاذرها وَلَا	*	تغررك يَا هذا بسم قاتل
أَوْ مَا تَرَى شهر الصيام مودعا	*	رام الرحيل وَمَا ظفرت بَطَائِل
وإذا قطعت بغفلة أوقاته	*	من لي ومن لك أن نراه لقابل
فارجع إِلَى المولى وعامل فَمَا	*	حقا يضيع لديه أجر العامل
وارغبه في التوفيق منه بتوبة	*	تأتي بإصلاح لقلب غافل
واسأله بالهادي الحبيب مُحَمَّد	*	بصلاته تظفر بنهج وسائل
صلى عليه الله جل جلاله	*	مَا حنّ مشتاق لِإِلَفِ أهل

من "مجموع القصائد والأدعية" | المطبعة الثمالية-الجزائر.